# الفصل الثامن

# الوسائل التربوية

## نظرية موجهة للتربية الإسلامية

● إن التربية نوع من الدعوة ، بل من أخطر أنواع الدعوة . ولا بد من وجود نظرية عامة توجه النشاط التربوي إلى غايات ومقاصد إسلامية عليا . فإذا تحققت ، نشأت أجيال ذات توجهات فكرية وسلوكية معينة ، هي التي أرادتها النظرية التربوية ، والتزم بها رجال التربية .

- وفي الإسلام ، «الإنسان الصالح» هو غاية التربية والدعوة بكل ضروبها . و«الصلاح» المنشود هو الصلاح الذي تحدده تعاليم الإسلام ، في العقائد ، والشرائع ، والأخلاق . وصلاح النفس البشرية هو الطريق إلى صلاح كل شيء . يقول صاحب المنار إنه : « إذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به ، وتتولى أمره . فالإنسان سيد هذه الأرض ، وصلاحها وفسادها مَنُوط بصلاحه وفساده»[1]. فالتربية يجب أن تتجه إلى إصلاح النفس أولاً ، وأن تخطِّط مناهجها لبلوغ هذه الغاية السامية .

- ومن الخطأ أن تؤول أفكار بعض التربويين اليوم إلى نسيان النظرية التربوية الإسلامية ، وتقول للتلاميذ إن كل الخيرات مرهونة بالعلم والتقنية ، وتسجل هذه المقولة على غلاف الكراسات ، لتلازم التلاميذ طوال العام . والعلم والتقنية مهمان جداً ، ولا يرتاب في ذلك أحد . لكن العلم والتقنية وحدهما لا يزودان البشر بالعقائد والقيم التي تضبط سلوكهم وترتفع به . وصلاح النفس البشرية مرهون

---

(١) تفسير المنار ؛ المقدمة ؛ ص ٧ .

برسوخ الإيمان بالله تعالى ، وطاعته ، والعمل بكتابه وبسنة رسوله . والعلم والتقنية ، دون إيمان وطاعة وقيم ، ينشآن أجيالاً من الفنيين المهرة الذين يتفلّتون من القيم والقوانين ، ويخضعون لشهواتهم الفردية ، ونزواتهم الأنانية . ولا يمكن أن ينشأ مجتمع صالح ، متقدم ، متحضر ، بمثل تلك الأجيال . والحمد لله أن أحداً لم يأخذ بنصائح وزارة التعليم المصرية لتلاميذ مدارسها !

## التربية المدرسية

● ونستطيع أن نوجز أهداف التربية والتعليم في كلمتين اثنتين هما : القيمة والمهنة . فكل المواد الدراسية ، في أي بلد في العالم ، تخطط بُغْيَة تنشئة إنسان صالح ، يجيد مهنة ، ويلتزم في تفكيره وسلوكه بقيم أخلاقية وضوابط فكرية ، يؤمن بها المجتمع الذي يعيش فيه . و« الصلاح » تحدده قيم المجتمع الخاصة ؛ أما المهنة فتحددها الحاجات الحياتية البشرية المشتركة بين أمم الأرض ، في مجالات الزراعة والصناعة والطب والتقنية والدفاع والتعليم والاجتماع والسياسة ، والدين ، والفنون والآداب .

● هذه الصورة الموجزة تحتاج إلى شروح وإيضاحات كثيرة ربما تستغرق كتاباً كبيراً . لكننا هنا معنيون فقط بالدور الدعوي للمدرسة ، أو للتربية والتعليم ، من الحضانة إلى الجامعة . وهو دور مهم جداً ، ومؤثر جداً ، وجدير بالاهتمام في أي بحث في تطوير الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر . ففي هذا الواقع اليوم تضخم الدور الدعوي للتربية والتعليم ، بسبب التوسعات الهائلة في تشييد المدارس والمعاهد والكليات ، لكي تستوعب جميع المواليد ، وتقضي على الأمية ، وتفسح مجال الترقي في الدراسة إلى مرحلة الدراسات العليا .

● وبهذا التوسع سَلبت المدرسة الدور التربوي للأسرة إلى حد كبير ، أو لنقل إن الأسرة تنازلت عن دورها التربوي للمدرسة ، حيث انشغل الآباء والأمهات بالعمل ، ووضعوا أولادهم في حضانة المدرسة (في رياض الأطفال) . وحتى في القرى الصغيرة ، تبعث بعض الأسَر بأولادها إلى دور الحضانة صيانة لهم من الآثار

السلبية لزمرة اللعب في الشارع . ولا ريب أن كثيراً من الأسَر لا تزال تتمسك بواجباتها التربوية ، سواء بعثت بالأولاد إلى دور الحضانة أو أبقتهم في رعايتها المنزلية . لكن الاتجاه إلى دور الحضانة يتعاظم ، مع دخول أعداد كبيرة من النساء إلى ميدان العمل ، ورغبة كثير من النساء في التفرغ للرياضة ، أو الخمول والكسل واللهو !

● ونال التلفاز حظه كاملاً من أوقات الأولاد والآباء أيضاً ، وأصبح المربِّي رقم واحد في كثير من البيوت ، قبل المدرسة ، والأسرة ، وتعاظم تأثيره بما يتمتع به من جاذبية وإغراء للصغار والكبار . وأصبح كفُّ الأولاد عن الاستمرار في المشاهدة عسيراً .

● وندع التلفاز الآن لنركز على التربية موضوع هذا الفصل .

– إن المدرسة حياة يومية متصلة . فبعد اليوم الدراسي الذي يمتد من ست ساعات إلى ثماني ساعات ، تبدأ فترة المذاكرة التي تكون قصيرة في مرحلة الحضانة والابتدائي ، ثم تمتد في المراحل التالية حتى تستغرق يوم الطالب ونصف ليله . ويدرس التلاميذ «المواد القيميَّة» التي تنطوي على دعوة إسلامية ، أو دعوة مضادة ، في مناهج التربية الإسلامية والأخلاق والتاريخ والقراءة والتربية الوطنية والفلسفة والاجتماع والآداب والفنون والاقتصاد والسياسة والأحياء .

● وقد يتبع المعلمون والأساتذة منهج الدعوة الإسلامية السديد ، وقد لا يتبعونه (مثل أي داعية ، بأي وسيلة دعوية أخرى). وهم يستخدمون وسائل دعوية عديدة ، وإن كان الأغلب الأعم اتباع طرق تدريس المواد المقررة . ففي بعض المدارس يدرَّب التلاميذ على الخطابة ، وكتابة المقال ، والتمثيل المسرحي ، والشعر ، والصحافة المدرسية والجامعية .

– ويبذل التلاميذ والطلاب جهداً كبيراً في تحصيل هذه المواد «القيمية» ، «الدعوية» لأنهم يمتحنون فيها ، وينجحون أو يرسبون . ومن هنا كان تأثيرها عميقاً ، سلباً وإيجاباً .

● يقول الشاعر الهندي المسلم «أكبر الإله آبادي» : «يا لبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات وقد كان ذلك أسهل الطرق لقتل الأولاد! ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ»[1]. كان بوسع فرعون أن ينشئ أجيالاً من المصريين الموالين له لو أنه أنشأ الكليات والمعاهد والمدارس ووضع لها المناهج المناسبة لذلك الغرض .

- وقد وصل تفكير النظم الحاكمة اليوم إلى هذه البدهية ، وسخَّروا التربية والتعليم لتنشئة أجيال تؤيدهم وتدين بالولاء لهم . وفي العالم الإسلامي دولة واحدة هي التي يتفق نظامها السياسي مع الإسلام إلى حد كبير ، هي المملكة العربية السعودية ، وتسخر التربية والتعليم في مواده «القيمية» للدعوة إلى الإسلام والنظام الملكي الوراثي . وسائر الدول الإسلامية تخضع لنظم «هجين» فيها عناصر إسلامية وأخرى رأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية بنسب متفاوتة من دولة إلى أخرى . وكل دولة تسخر التربية والتعليم لتسويغ نظامها «الهجين» لدى تلاميذ المدارس والكليات ، فنشأت أجيال حائرة مضطربة . وانحازت نسبة منهم إلى الإسلام بالمعنى الكامل ، ورفضت المكونات الأجنبية في «الهجين» ؛ وانحازت نسبة أخرى منهم إلى المكونات الأجنبية ، وتخلت عن الإسلام بمعناه الكامل ، ورضيت بالإيمان بأجزاء منه ، ونبذت أجزاء . وساد في تلك الدول نظام «الاجتزاء» الذي ضمن بقاء «الهجين» الثقافي والاقتصادي بمكوناته المتعارضة ، الأمر الذي تسبب في صدامات متصلة بين النظم وبين رعاياها .

● وفيما يلي أمثلة «للدعوة المضادة» عن طريق التربية والتعليم :

● فهذا نبي الله نوح عليه السلام ، وقصته مع قومه معروفة للتلاميذ في المرحلة الابتدائية ، مع دراسة لها كما جاءت في سورة هود ؛ ولكن في المرحلة الثانوية يقال إنه رجل صالح ، أسَرَّ إليه «إيا» إله الحكمة بأمر الطوفان ونصحه بصنع سفينة ففعل وبذلك نجا من الغرق !

---

(١) أبو الحسن الندوي ؛ «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة العربية ؛ ص ١٨٣

● ويقال إن رسول الله ﷺ اكتسب صفات الصبر والرحمة ، والقناعة والصدق والأمانة من عمله في رعْي الأغنام ، ثم في التجارة . إذن ، لا تأثير للرسالة السماوية ، ولم يؤدبه ربه فأحسن تأديبه ، كما قال ﷺ عن نفسه . ولا ذِكْر لقول الله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (النجم:٣-٥). ومئات من التوجيهات والأوامر القرآنية التي رسمت له ولأمته أرفع درجات السلوك .

● والجيوش التي فتحت الشام واليمن ومصر وفارس والأندلس توصف بأنها «عربية» لا مسلمة ، والدول التي أقامتها أيضاً دول عربية . وخالد بن الوليد ﷺ شخصية عربية !

● ويقال: إن مصر وشخصيتها الحضارية من صنع النيل، ولا أثر للإسلام فيها !

● وهجرة الرسول ﷺ كانت استغفالاً للمشركين لا معجزة فيها !

● ويقال إن علماء مصر أثروا في عقيدة الإسلام ! (يعني : هي عقيدة متغيرة من صنع بشر!)

● ونهوض الأوطان يتحقق بالعلم وحده ، بلا قيم ولا دين !

● وتدرس الحضارة الفرعونية فلا يُستشهد بآية قرآنية واحدة من الأربع والسبعين التي ذكرت فرعون !

● ودَرَسَ التلاميذ صفحة ونصف عن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ﷺ ، ودرسوا ثماني صفحات كاملة عن المغني سيد درويش !

● ودرسوا ١٤ صفحة عن الخلفاء الراشدين ﷺ ، و٤٢ صفحة عن رواد عصر التنوير (رفاعة الطهطاوي وأتباعه) .

● ولقد كانت النزعة العلمانية هي الباعث على اقتراف كل هذه الأخطاء وغيرها مما لم أذكره . لقد أوْرَثَت أولئك المؤلفين الجفوة تجاه القرآن فلم يعترفوا بأنه

آكد مصدر عن فراعنة مصر القديمة ؛ وهي التي حملتهم على نسيان القيم الأخلاقية والتشريعية ، وتسخير كل المناهج لتوكيد قيمة واحدة هي : الوطنية . وهي التي صورت لهم «العروبة» كبديل للإسلام ، وهي التي أوقعتهم في سائر التجاوزات .

● وهكذا صارت المناهج «القيمية» مضادة للخطاب الديني الإسلامي الصحيح . واستبيحت الحقائق العلمية والتاريخية من أجل نصرة الدعوة المضادة ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف:٨).

## البعوث الدعوية

● والبعوث وسيلة تربوية أصيلة للدعوة . فقد كان رسول الله ﷺ يبعث الصحابة لتعليم الناس الإسلام . ومن أشهر بعثاته ﷺ ، تلك التي أرسلها إلى «عَضَل والقَارَة» سنة ثلاث هجرية ، وفيها من خيرة الصحابة العلماء : مَرْثَد ابن أبي مرثد ، وخالد بن البُكَيْر ، وعاصم بن ثابت ، وخُبَيْب بن عَدِيّ ، وزيد ابن الدَّثِنَّة ، وعبدالله بن طارق ﷺ .

- وغدرت «عَضَل والقَارَة» بأولئك الدعاة الأبرار في مأساة محزنة أليمة ، إذ قتلوا خمسة ، وأسَرُوا «خُبَيْب بن عَدِيّ» وباعوه إلى مشركي مكة ليقتلوه ظلماً وعدواناً[1]. وتكررت المأساة في «بئر معونة»[2].

● ولا يزال للبعثات دورها في الدعوة في عصرنا هذا . فالدول المسلمة الكبيرة والمتقدمة علمياً ترسل العلماء والدعاة والمدرسين إلى البلاد المسلمة ، والبلاد غير المسلمة ، لتعليم الأقليات والجاليات المسلمة . وتتوقف نتائج المبعوث على معرفته بالإسلام أولاً ومعرفته بلغة القوم الذين يتلقون عنه ثانياً ، ثم على حميته الدينية التي تهوِّن عليه المشاق ، وتزوِّده بالصبر والمثابرة .

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ٢ ص ١٦٩-١٧٣ .

(٢) نفسه ؛ ص ١٨٣- وقد استشهد فيها أربعون داعية ﷺ .

● وتستَقبلُ الجامعاتُ الإسلامية الكبرى أعداداً من الطلاب من بلاد إفريقيا وآسيا لتعليمهم الإسلام ، كي يعودوا إلى بلادهم ، يدعون إلى الله على بصيرة [1].

- فالابتعاث وسيلة أصيلة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، لكنه اتخذ أشكالاً مختلفة عبر العصور . ويجب دعمه من طرف الدول المسلمة الغنية ، لمواجهة التنصير والاستشراق ، وقوى الدعوات المضادة والمرتدة ، كالقاديانية والبهائية والفلسفات الإلحادية في البلاد المسلمة الضعيفة . وهذا الدعم يشمل تطوير الخطاب الديني إلى جانب الدعم المالي والسياسي .

● ومعلوم أن الأزهر يقوم منذ سنين عديدة باستقبال الطلاب العرب والأتراك والهنود والأفارقة في معاهده وكلياته . وقد شُيد معهد خاص للبعوث في القاهرة ، ومدينة سكنية للطلاب الوافدين ، كما أرسل البعوث إلى الخارج للدعوة والتربية ، بقدر ما سمحت له إمكاناته المادية .

- وأسهمت السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وباكستان وماليزيا في تدعيم البعوث الإسلامية وتربية الطلاب الوافدين .

● وعلى الأمة المسلمة أن تضاعف البعوث ، وتسهم دول أخرى في نفقاتها .

- وكانت الدعوة إلى الإسلام موضع ترحيب وتقدير من جانب المسلمين وغير المسلمين في الماضي والحاضر . ففي عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ ، طلب ملك الهند إرسال عالم مسلم إليه يعلمه الإسلام . وجاء في الرسالة : « أما بعد ، فإني قد بعثت إليك بهدية ، وما هي هدية ، ولكنها تحية . وأحببت أن تبعث إليّ رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام ، والسلام »[2].

- وأظهر المسلمون من غير العرب رغبتهم القوية في معرفة دينهم على أيدي الدعاة العرب . ولذلك تواصلت البعوث قديماً وحديثاً .

---

(١) على رأسها جامعات الأزهر والمدينة المنورة والإمام محمد بن سعود بالرياض .

(٢) راجع : دكتور محمد ماهر حمادة ؛ الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ؛ مؤسسة الرسالة ؛ ط ١ ١٣٩٤-١٩٧٤م ؛ ص ٥٤١ - رقم ٧٩٠ .

- لكن الشكوى من عدم كفاية هذه البعوث لا تزال تتردد في الإعلام . فهذا مفتي زيمبابوي - الشيخ إسماعيل بن موسى - يشكو من قلة المدرسين المؤهلين وعدم وجود معهد إسلامي لتدريب أئمة المساجد ، كما يشكو من سوء المناهج التعليمية وهزالها . وهو يطالب ببعث المزيد من المدرسين والوعاظ ، وإنشاء المزيد من المدارس والمراكز الإسلامية . وهناك فرصة لدعوة الوثنيين من أهالي تلك البلاد إلى الإسلام وإنقاذهم من عبادة الأصنام والأوثان ، إلى جانب نشر الوعي الإسلامي بين المسلمين ، وتحصينهم ضد الدعوات المضادة التي تنشط في طول البلاد وعرضها[1]. وهذا يتطلب خطاباً دينياً شاملاً ومتطوراً .

● وفي لقاء آخر بين المحرر والدكتور إبراهيم أبو محمد رئيس المؤسسة الأسترالية للثقافة الإسلامية ، عرض مشكلات الجالية المسلمة في أستراليا ، فكان سوء فهم الأستراليين للإسلام أخطرها ، إلى جانب مشكلة تغريب الجيل الجديد من أبناء المسلمين الذين ولدوا هناك وتربوا في المدارس العامة . وقد أنشأت الجالية المسلمة إذاعة خاصة لبيان حقائق الإسلام لغير المسلمين ، والدعوة إلى طاعة الله بين المسلمين . وطالب رئيس المؤسسة الإسلامية بإنشاء فضائية للدعوة الإسلامية ، لأنه لا يفل الحديد إلا الحديد . وهناك مئات الفضائيات التي تعرض مبادئ المسيحية والفلسفات الإلحادية ، وتغري المشاهدين بالتحلل من الدين والقيم الأخلاقية . وفي اعتقادي أن إنشاء فضائية للدعوة مطلب يسير التحقيق .[2]

● وأموال الزكاة تقدر اليوم بمليارات الريالات والجنيهات والدراهم والدولارات ، ومن المشروع إنفاق جزء منها على الأنشطة الدعوية . فيقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله : «ومن أهم ما يُنفق في سبيل الله (من أموال الزكاة) في زماننا هذا : إعداد الدعاة إلى الإسلام وإرسالهم إلى بلاد الكفار من قِبَل جمعيات منظمة تمدهم بالمال الكافي ، كما يفعله الكفار في نشر دينهم . . ويدخل فيه النفقة

---

(١) وردت شكواه ضمن حوار أجراه المحرر محمد جمال أبو زيد في جريدة الأهرام يوم ١٤٢٥/٩/٢٣هـ ، ٢٠٠٣/١١/١٧م .

(٢) أجرى الحوار المحرر محمود عشب ونشره في الأهرام يوم ١٤٢٥/٩/٢٥هـ-٢٠٠٣/١١/١٩م .

على مدارس العلوم الشرعية وغيرهم مما تقوم به المصلحة العامة . وفي هذه الحالة يُعطى منها معلمو هذه المدارس ماداموا يؤدون وظائفهم المشروعة التي ينقطعون بها عن كسب آخر ، ولا يُعطى عالم غني لأجل علمه وإن كان يفيد الناس به »[1].

ويشير رشيد رضا هنا إلى بعثات التنصير التي انتشرت في جميع أرجاء العالم ، والعالم الإسلامي خاصة ، ونجحت في تنصير أعداد كبيرة من أبناء المسلمين في آسيا وإفريقيا . والبعثات الإسلامية يمكن أن تواجه تلك البعثات في داخل بلاد المسلمين ، وفي أمريكا وأوربا .

● واليوم هناك غير المدارس وسائل حديثة للدعوة إلى الإسلام ، ومواجهة حملات التشويه التي يشنونها ضده . ولا ريب أن فضائية إسلامية أو مؤسسة أكاديمية إسلامية أو دار نشر إسلامية في أوربا خير ألف مرة من رصد الأموال لقتل رجال من أمثال سلمان رشدي . وإذا توفرت وسائل التمويل ، فما عذرنا للتقاعس عن أداء واجباتنا نحو الدعوة الإسلامية ؟ لماذا لا نحاول الوفاء بحاجات المسلمين في الخارج - في أوساط الأقليات والجاليات المسلمة ، وفي البلاد التي أغلبيتها مسلمون لكنهم فقراء مثل بنجلاديش؟

- ولو أننا تعمقنا في بحث القضية فسوف نجد مصالح كبيرة تعود على الأمة المسلمة ، سياسية واقتصادية وثقافية . وعلينا أن نكشف عن تلك المصالح المحتملة لإثارة الحمية لدى الدول المسلمة القادرة مادياً وثقافياً على الشروع في العمل . والشعوب المسلمة غافلة عن هذه الأبواب لإنفاق زكاتها فيها ، ولذلك يُؤتونها للفقراء والمساكين فقط ، دون سائر الأصناف المستحقة لها .

## دور المكتبات

● وتؤدي المكتبات العامة دوراً مؤثراً في تطوير الخطاب الديني، ونشر الثقافة . والعالم كله يعرف هذه الحقيقة ، ولذلك تحرص الدول على نشر المكتبات العامة

---

(١) راجع تفسير المنار ؛ تفسير الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة .

في طول البلاد وعرضها ، بحيث توجد مكتبة في كل حي من المدينة ، وفي كل قرية ، ومدرسة وكلية وصحيفة ، لكي يصبح الدين وعلومه ، والمعرفة والثقافة في متناول الجميع . وكان لهذا مردود عظيم .

- وفي العالم الإسلامي يمكن أن تكون المكتبات أرخص وسيلة للدعوة ، لأن تكوينها لا يحتاج إلى مبالغ كبيرة . ومن الممكن أن يكون مقرها في المدرسة أو في المسجد أو في مبنى صغير . وتوجد في المساجد والمدارس مكتبات ، لكنها غير مزودة بالكتب التي تشبع رغبات القراء ، وتقتصر على كتب خاصة بالمستوى الذي بلغه التلاميذ في مراحل الدراسة . وغالباً ما تُغْلَق مكتبات المساجد بصفة دائمة خَشْية ضياع «العهدة» ـ أي الكتب التي دخلتها ووقع العامل باستلامها !

● ومن الجلي أن الإيمان بدور المكتبة غير موجود لدى معظم المستويات الإدارية . ولذلك لا يطلب أحد فتحها ، ولا يُلام عامل على إغلاقها .

ودخل التصادم بين الإسلام والعلمانية في قضية المكتبات . فالسلطات تحاول تزويد المكتبات بكتب علمانية تؤيد العناصر المادية في «الهجين» الثقافي الشائع ؛ وهي ترفض إدخال أي كتاب إسلامي! وأغلبية القراء المسلمين تريد الإسلاميات . وهذه المناقص تخنق الخطاب الديني أو تشلّه .

● ويشعر المرء بالحسرة حين يتعامل مع المكتبات الأجنبية . وقد حدث يوماً أن استعرت كتاباً من مكتبة «جوته» بالقاهرة ، ثم جددت فترة الاستعارة مرتين ، فإذا بالموظف يهديني الكتاب قائلاً : ما دمت مشغولاً بالموضوع ، فأنت أحق به ، ولا داعي لتكرار الإعارة . وعندهم تسهيلات الإعارة لكتب ثمينة جداً مدهشة ، والقاعدة عندهم ـ كما ذكرها لي أمين إحدى المكتبات : لا يمكن أن نتعب مئات القراء بسبب قارئ لص أو مهمل . . . وقليل من الكتب يُفقد ، ولكننا لا نغير قاعدتنا !

● فكيف نحدث تغييراً جذرياً في نظرتنا للمكتبات؟ هذا هو السؤال!

● يشير القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة التربوية في قوله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١) وفي قوله ﷻ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة: ٤).

● وسند القدوة «أن الناس مجبولون على تشبه بعضهم ببعض»[1].

● وقد استفاد الدعاة من هذه الوسيلة الأصيلة في الدعوة إلى الإسلام بأن قدَّموا للمدعوين صورة واضحة لأعمال النبي ﷺ وأقواله وقراراته، كلٌّ بحسب قدرته. ولذلك يتحتم على الدعاة دراسة السيرة النبوية دراسة جيدة، ودراسة الحديث وعلومه، وكيفية الاستفادة من وسيلة الاقتداء برسول الله ﷺ، وبالأنبياء جميعاً، عليهم الصلاة والسلام.

- ويتسع مجال القدوة الحسنة ليشمل صحابة رسول الله ﷺ، مع مراعاة الفارق بين النبي المعصوم الذي لا يُرَدُّ له حديث صحيح، وبين الصحابي الذي لا عِصْمَة له، ومن ثم يُؤخذ من كلامه ويُترك. والمقصود بـ«كلامه» هنا هو اجتهاداته، لا ما يرويه عن النبي ﷺ. وقد حَدَّدت علومُ الحديث معايير التواتر والصحة في الحديث النبوي. وعلى الداعية أن يتأكد من درجة الحديث الشريف قبل أن يستند إليه في عمله الدعوي. ومن المؤسف أن كثيراً من الدعاة لا يلتزمون بذلك ويتورطون في الاستشهاد بأحاديث موضوعة.

● ومن هاتين الآيتين السابقتين نفهم أن الرسول ﷺ كان قدوة لمن شَهِدَه، كما أنه قدوة لنا اليوم، وللمسلمين في كل عصر، دون أن يلتقوه أو يستمعوا إليه مباشرة. والدعة هم الذين يقدِّمون الصورة الدقيقة الصحيحة له

---

(١) ابن تيمية؛ الحسبة في الإسلام؛ دار الكاتب العربي؛ ص ٨٥.

عليه الصلاة والسلام، ولأصحابه الكرام ﷺ، وللأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام، مع مراعاة القاعدة الأصولية القائلة بأن شرع مَنْ قبلنا ليس من أصول الأدلة[1].

● ويمكن القول إن «القدوة» يُسَاءُ استخدامها في الخطاب الديني المعاصر. فالسلوك العام في البيت والمدرسة والنادي والشارع بعيد عن المثل الأخلاقية الإسلامية.

● أما الأعمال الدرامية في التلفاز والإذاعة فلا تقدم القدوات الحسنة ولاتحترم الحقائق الثابتة في السيرة النبوية وأخبار الصحابة، وتطلق العنان للمؤلفين لكي يضيفوا ويحذفوا كما يشاءون، أو كما تريد التوجهات السائدة في المجتمع. وتصل المخالفات حد الجريمة في بعض المسلسلات، فتقدم القدوات الحسنة مَشُوبة بكثير من الانحرافات، ومعها قدوات سيئة كثيرة، من الراقصات والمغنيات.

● وحاول المؤرخون المحدَثون استخدام القدوة، كل لصالح مذهبه، حتى وجدنا من يصور الخوارج على أنهم أحرار ناضلوا من أجل الحرية، والشعوبيين على أنهم أبطال تصدوا للعنصرية العربية! وغيلان الدمشقي على أنه حكيم زمانه، وأبا ذر الغفاري كزعيم شيوعي![2]

● هذا التزييف كان هدفه كسب الشعوب إلى صف التغريب الذي لقي مقاومة صلبة من الأمة المسلمة، وكان من أعظم تحديات العصر الحديث.

- إن الإسلام، كما يقرر الدكتور مراد هوفمان ـ يضع ثقته: «في الجاذبية الحتمية لنمط الحياة النموذجي الذي يلتزم به الفرد المسلم». «والإسلام يعوِّل على الأثر التلقائي الناجم عن بساطته وطابعه الفطري، ووضوحه واعتداله لكل من يريد ويستطيع أن يسمع وأن يرى». ثم يقول د. هوفمان: «ومع ذلك يجب على المسلم ألا يتردد في أن يكون حلقة في رابطة السببية المؤدية إلى إيمان جاره»[3].

---

(١) أبو حامد الغزالي؛ المستصفى؛ تحقيق محمد مصطفى أبو العلا؛ مكتبة الجندي؛ ص ٢٣٨.

(٢) هذا ما تزعمه إحدى المسرحيات الفائزة بالجوائز الأولى لوزارة الثقافة المصرية.

(٣) انظر كتابه: يوميات ألماني مسلم؛ ترجمة د. عباس رشدي العماري؛ مركز الأهرام للترجمة والنشر؛ ط ١ ١٤١٤هـ-١٩٩٣م؛ ص ١٦٧،١٦٨.

- ولقد أمر النبي ﷺ بإنزال وفد ثقيف - وهم مشركون - في المسجد «حيث يسمعون القرآن» ويرون المسلمين وهم يصلون . وأفلحت هذه الوسيلة في جذب الوفد إلى الإسلام ، فأسلموا[1].

- فالمهم إذن هو وجود المسلم الملتزم ، الأسوة الحسنة ، الذي يعرض نمط الحياة الإسلامية النموذجي ، بما فيها من البساطة والفطرة والاعتدال . والمشكلة هي انتشار الأسوة السيئة متمثلة في أعداد كبيرة من المسلمين ، أولئك الذين ينفرون الآخرين من الإسلام .

● والحياة العامة تعج بأنواع عديدة من القدوات السيئة والمنحرفة والساقطة التي تعرقل عمل الدعاة وتبطل مفعوله ، وتزيِّن السلوك المنحط والأقوال المُسِفَّة للنشء . وتملك أجهزة التلفاز والسينما أساليب فنية مغرية جداً . وتشجع الناس على التحلل من القيم والشرائع ، في حين تطالبهم الدعوة الإسلامية بالتقيد بها والالتزام بالنهوض بتبعاتها . ويقع الفرد بين جاذبيْن قويَيْن : بين قوة الشهوات الحيوانية في طبيعته البدنية ، وبين النزوع الفطري إلى السمو الأخلاقي والترفع على الرذائل والجرائم ، وممارسة الإيثار نحو الآخرين .

● وسوف يواجه الدعاة آثار القدوات السيئة طالما انفلت مقود التربية والتلفاز والسينما والإذاعة والصحافة من أيدي الصلحاء من الأدباء والكتاب والمخرجين ، وأسلم عَنَانَه للعلمانيين المتغربين المتحللين من شرائع الإسلام وقيمه ، فصار من أعتَى التحديات أمام تطوير الخطاب الديني .

● ودور الدولة في رعاية الدعوة هو الحاسم في كبح أجهزة إنتاج القدوات السيئة والسلبية . والإعلام الثقيل - وبخاصة التلفاز - يحتاج إلى تشريعات لضبط أدائه بحيث يتبنى القدوات الحسنة ويحجب القدوات السيئة . وعلينا أن نلح على المجالس التشريعية لإصدار التشريعات المطلوبة لتنظم ذلك .

---

(١) ابن القيم ؛ زاد المعاد ؛ جـ ٣ ص ٣١-٣٣ .

● والمجتمع والأسرة والمدرسة والمسجد والصحافة والآداب والفنون تلعب أدواراً مهمة في تبني القدوات الحسنة ونبذ السيئة . وبهذه المثابة تعتبر مؤسسات دعوية . فكل مؤسسة تربوية هي مؤسسة دعوية في حقيقة الأمر . ولكن من الممكن أن تسخَّر ـ كسائر الوسائل ـ للدعوات المضادة للإسلام . وهذا هو واقع المسلمين اليوم . فالمجتمع العام ـ بناديه وملاهيه ووسائل المواصلات فيه ، وشوارعه وحواريه ـ يقدم القدوات السالبة المباشرة والحية ، وغير المباشرة ، والمصورة .

والاستفادة من ظاهرة القدوة ، على هذا ، تتطلب وجود نظرة شاملة لمجالاتها ، والتنسيق بين منتجيها ، لتبني القدوات الحسنة وحجب القدوات السيئة . وهذا هو دور الدولة المسلمة في تطوير الخطاب الديني . وترك الحبل على الغارب يؤدي إلى ظهور « التهادم المتبادل » ، وشل فعاليات الدعوة .

* * *

obeikandl.com